شربت هوى الثلثين مصر فغيبت اصفاها في قنبها المتصدع
يانصرُ أبكارُ العلوم استودعت أنق صعيدكِ أنقىَ المستودَعِ
فسقاهُ قطر الشام قطر نجيعهِ من متلثيهِ وقال يا ارض ابلعي
ودجاهُ قال لاعين ترعى السما اسماء طوفانِ الاسى لا تقلعي
نُظم الرثاء فيامطوَّقة اسجعي وسلاف احزاني اجرعيهِ وجرّعي
اسبيت بعد ثبابهِ احيي الدجى بين الغوارب والنجوم الطلّعِ
وشغلت اضحاري بتتبع حمائمٍ تبكي هديلاً غائباً لم يرجعِ
وعلى غريب الدار نحت فأرّخوا ناح الاسيف على غريب المربعِ ١٩٠٦
وهجرت شدوي والسرورَ خشيتهُ بغموم تاريخي وفاة اللوذعِ ١٣٢٤

مظفر الدين شاه

وبلاد ايران

قضى هذا الملك العادل بعد ان وهب أمتهُ حكومة دستورية . تعلن ما لم يفعلهُ اكثر الملوك الدستوريين الآتين صليل السيوف ودوي المدافع فابقى لهُ أطيب ذكر في قلوب رعيتهِ

وُلِدَ في الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٥٣ وخلف اباهُ ناصر الدين شاه في غرة مايو سنة ١٨٩٦ فلم يتمتّع بالملك سوى عشر سنوات وبضعة اشهر . ومملكتهُ من أقدم ممالك المشرق أسّسها قورش المادي وعزّزها داريوس وزركسيس . وهو انشاه السادس من بيت قاجار الذي رقي الى سرير الملك سنة ١٧٩٤ بعد حرب اهلية دامت خمس عشرة سنة

واحتفل بتتويجهِ في الثامن من شهر يونيو سنة ١٨٩٦ فخاطب وزراءهُ وكبار رجال دولتهِ حينئذٍ قائلاً " بدء كل عمل حمد الله وشكرهُ على نعمهِ السابغة فنشرع بحمدهِ ونستعين بهِ ونكل أمورنا اليهِ في قيامنا بهذا العمل العظيم وهو ادارة بلاد فارس وحماية الاسلام . ونرجو أننا بمعونة الله القدير نحتفظ برعايانا الذين هم وديعة الله في يدنا ونسوسهم بالعدل ونوردهم موارد السلام ونبذل جهدنا في اسعادهم وفي حفظ الروابط الودية بين مملكتنا وسائر الممالك " انتهى نقلاً عن كتاب " ملوك الناس " الموضوع باللغة الانكليزية . وفي هذا الكتاب ان لورد كرزن حاكم الهند وصفهُ قبل ان يُرقى عرش الملك فقال ان لهُ معرفة بالتاريخ والمامًا بعلم الثبات وهو أنيس لحضرتين العريكة بعيد عن الدعوى وحب التوقع ميّال الى طريقة الشيخية

عن تدين لا عن تعصب . وان المستر جون فورستر فريزر الذي طاف حول الارض ومثل لدى الشاه مراراً قال انهُ كثير الاهتمام بالمسائل السياسية الاوربية يستغرب انقطاع ملوك اوربا عن الاهتمام بها وتركهم الفصل فيها لوزرائهم . انتهى

وقد كانت اقامتهُ وهو ولي العهد في مدينة تبريز والياً للولاية ازربيجان . واخيل ابوهُ سنة ١٨٩٦ فاسرع الى طهران وخاف في اول الامر من أخويهِ ظل السلطان والي اصفهان ونائب السلطنة الذي كان وزير الحرب ولكن انكلترا وروسيا عضدتاهُ دفعاً لما يخيم عن الشقاق من الحروب الاهليَّة وبادر الجنرال توزاتوسكي الروسي قائد قزاق الفرس واستلَّ سيفهُ ووقف في صدر الحفلة التي اقيمت لتنصيبهِ على تخت الملك

ووعد شعبهُ حينئذٍ بان خطط الحكومة والاكتاب والاوسمة الملكيَّة والحربية لم تعد تعطَ الاَّ لمستحقيها ولا يباع شيءٌ منها بالمال. لكن دخل الحكومة كان قليلاً ونفقاتها كثيرة فشعرت بالضيقة المالية حالاً واضطرَّ ان يقترض الاموال من روسيا ويتركها ديناً على البلاد . وعزل امين السلطان وزير ابيهِ واقام مكانهُ امين الدولة فوعد باصلاح الاحكام وكتب لائحة بالاصلاح الموعود ولكنهُ لم يخرجهُ من القوة الى الفعل . واشتدَّت الضيقة المالية ثانيةً فعزل امين الدولة واعاد امين السلطان واعطاهُ لقب اتابك وامرهُ بتدبير المال اللازم لنفقاتهِ ونفقات الحكومة فلجأ الى انكلترا وكاد يعقد قرضاً فيها مقدارهُ مليون ومئتا الف جنيه ورهن لهُ دخل الجمارك في جنوبي مملكة ايران ولكن لورد سلسبري لم يقبل بذلك فاضطرَّت ايران ان تلجأ الى روسيا واقترضت الاموال منها ومن ثم رجحت السياسة الروسية في طهران على السياسة الانكليزية ونتج عن ذلك ان قيدت دولة ايران بقيود قد تمنعها من الارتقاء مثل انها لا تنشئ سككاً حديدية في بلادها ولا تسمح لاحد ان ينشئ فيها سككاً حديدية ما لم ترضَ روسيا بذلك . واعطيت الامتيازات كلها لتجار الروس وهم عاجزون عن ان يصلحوا بلادهم فكيف يصلحون بلاد غيرهم

وزار اوربا سنة ١٩٠٠ وقوبل في بطرس برج باحتفال عظيم واتى باريس لزيارة معرضها وشجع احد الفوضويين على مركبتهِ قاصداً الايقاع بهِ فقابلهُ بجنان رابط وشجاعة امتاز بها بيت قاجار . وسرَّ سروراً عظيماً بزيارتهِ لاوربا فاعادها على كثرة ما تتضيهِ من النفقات . وبعث اليهِ ملك الانكليز وفداً خاصاً بشأن التتويج وفي اليوم الذي تلد فيهِ بهذا الشأن اعلنت روسيا انها اتفقت مع ايران اتفاقاً تجارياً يضرُّ بمصالح انكلترا

وظلت المناظرة على شدتها بين الروس والانكليز في بلاد ايران الى ان نشبت الحرب

بين الروس واليابان وشغلت بها روسيا فانت كفة السياسة الى جهة انكلترا . ثم لما أحكمت الصلات بين روسيا وانكلترا بعد الحرب قلّ التناظر بين مصالحهما . والدولتان تتناظران لترويج مصالح رعاياهما في بلاد ايران قصد انكسب التجاري كما لايخفى ولكن انكسب التجاري قد لا يكون منهُ ضرر بل قد لايكون منهُ الاّ النفع اذا ساعد التجار اهالي البلاد على استثمار خيراتها وتعليم اهاليها

وقد ظهر لنا من محادثة بعض الايرانيين انهم عالمون بمصلحة بلادهم غير راضين عن بقاء احوالها على ما كانت عليهِ لاسيما وانهم اهل تجارة وقد جابوا الاقطار وعرفوا ما ينفع البلاد وما يضرها . وقيل لنا ان ائمة الدين ليسوا اقل من التجار تنوّرًا وان بعضهم درس في المدارس الاوربيَّة ولذلك كثرت شكواهم من تأخر البلاد وبلغ من امرهم في الصيف الماضي ان جاهروا بمقاومة الشاه ولما عجزوا عن ان ينالوا منهُ شيئًا انطلقوا الى كربلاء وأُقفلت الاسواق وخاف الناس سوء العاقبة فلجأ التجار منهم الى السفارة البريطانية فرأى الشاه من الصواب ان ينقاد لمطالب الامة فعزل وزيرهُ عين الدولة ومنح البلاد حكومة دستورية ومجلس نواب انتخب اعضاؤهُ في شهر ستمبر الماضي واجتمعوا الاجتماع الاول في ١٢ اكتوبر وافتتح هذا المجلس بنفسهِ ولقي حينئذٍ من شعبهِ كل دلائل الطاعة والولاء

وكان من اول اعمال المجلس انهُ اعترض على اقتراض الاموال من اوربا حاسبًا ان الامة تشتري بنكًا اهليًا يقرض حكومتها المال اللازم لها ولكنهُ لما اراد الانتقال من الاقوال الى الافعال وجد ان الامة لا تهتم بذلك او لا تستطيعهُ . ولا بدَّ من ان تمرّ السنون وتستثمر موارد الثروة وينتشر العلم في البلاد قبلما يصير اهلوها قادرين على الاستغناء عن الاجانب

وكان مصابًا بداء في كليتيهِ فجاءت هذه الاحوال مقوية للداء لانها زادت قلقهُ فدعي لهُ مشاهير اطباء طهران في شهر اكتوبر الماضي فتشاوروا واتفقوا على نوع المرض وعلى العلاج ابتدأ بداء الاستسقاء واشتدَّ الاستسقاء عليهِ في شهر نوفمبر فمنعهُ اطباؤهُ عن المآكل الجامدة واقتصروا على تغذيتهِ بالمآكل السائلة . وافى طهران حينئذٍ طبيب المالي مشهور بمعالجة هذا الداء اسمهُ الدكتور دمش فاضطرَّ الشاه الى البقاء في قصره وعدم الخروج منهُ وكان يُجبَر على الخروج يوميًّا اقناعًا للشعب انهُ في قيد الحياة وعلى تمام الصحة . واباح لهُ اكل المآكل الجامدة فاصطلحت حالهُ في اواسط نوفمبر وظُنَّ حينئذٍ ان الخطر زال تمامًا او تأخر طويلاً ولكن لم يفرغ الشهر حتى اشتدَّ الاستسقاء عليهِ وبقي جسمهُ يغالب الداء الى ان غلبهُ الداء في الثامن من يناير الماضي الساعة الحادية عشرة ليلاً واعلن ذلك في الصباح التالي

ولما جاء ولي عهده الامير محمد علي مرزا الى القصر وبايعهُ الامراء والعلماء وكبار رجال الدولة

وسيبقى اسم مظفر الدين شاه مذكوراً في تاريخ ايران بانهُ منحها حكومة دستوريَّة نيابيَّة تستطيع ان ترقى بواسطتها الى اعلى مراتب الدول العصريَّة

وبلاد ايران شرقي بلاد الدولة العلية ضولها من الشمال الى الجنوب ٧٠٠ ميل ومن الشرق الى الغرب ٩٠٠ ميل ومساحتها نحو ٦٢٨٠٠٠ ميل مربع وكثير منها قفار قاحلة وسكانها قلال جدًّا فلا يصيب الميل منها ١٦ نفساً. وقد قدّر عدد سكانها سنة ١٨٨١ بسبعة ملايين و٦٥٣ الف نفس. سكان المدن منهم نحو مليونين والقبائل الرحَّل نحو مليونين والباقون يسكنون القرى والارياف. ويقدر عدد السكان الآن بنحو عشرة ملايين من النفوس

والعاصمة طهران وفيها نحو ٢٨٠ الف نفس وتليها تبريز وفيها مئتا الف واصفهان وسكانها نحو مئتين الفاً ومن امهات مدنها مشهد وقرمان ويزد وشيراز وهمدان وقزوين وكلها اسماء مشهورة في كتب العرب لخروج كثيرين من العلماء والائمة منها

واكثر اهالي ايران على مذهب الشيعة وفيها قليل من الفرس واليهود والارمن والنساطرة

وفي البلاد كثير من المدارس يتعلم فيها الطلبة قواعد الدين والفارسيَّة والعربيَّة وبعض العلوم الابتدائيَّة. وفي طهران مدرسة صناعية فتحت سنة ١٨٤٩ اساتذتها من الاوربيين وفيها ايضاً مدرسة حربيَّة وفي تبريز مدرسة أُخرى ويدير الاولى استاذ ايراني درس في برلين وفيها مئة طالب. وفي طهران وغيرها من المدن مدارس ابتدائية كثيرة تحت ادارة نظارة المعارف. وسنة ١٩٠٠ فتحت في طهران مدرسة لتعليم فنون السياسة

وكان دخل الحكومة سنة ١٨٩١ نحو مليون و٧٧٥ الف جنيه ولكن لما صارت الحكومة مضطرة ان تدفع الاموال لأوربا ذهباً ودخلها من رعاياها فضة بلغت قيمة دخلها مليوناً و٣٢٧ الف جنيه فقط سنة ١٩٠٤ لان الحكومة تتقاضى الاموال من الاهالي فضةً وتدفع لربا دينها وثمن ما تشتريهِ من اوربا ذهباً فينقص دخلها على حسب نقص قيمة الفضة. ولكن اصلحت ادارة البلاد منذ سنة ١٩٠٣ اصلاحاً يمنع الزيادة في نفقات الحكومة والنقص في دخلها ويُنتظر ان لا تزيد النفقات على الدخل بعد الآن. ونصف دخل الحكومة من الجمارك والمصايد والمعادن والبوسطة والتلغراف والنصف الآخر من الضرائب المفروضة على الاهالي. وتدفع الحكومة ربا لدينها خمسة في المئة كما كانت مصر تدفع قبل الاحتلال

وجيش ايران ١٣٠ الفاً ولكن الجيش العامل لا يزيد على ثلاثين الفاً وهو مقسوم الى اثني عشر فيلقاً عدد رجال كل فيلق من ٥٠٠٠ الى ١١ الفاً ولكل فيلق منها سردار خاص

بو . ولايران سفينتان حربيتان صغيرتان قوة آلة احداهما ٤٥ حصاناً وفيها اربعة مدافع صغيرة قطر فوهة المدفع منها ثلاث عقد وقوة آلة الاخرى ٣٠ حصاناً والسفينتان تابعتان لادارة الجارك لمنع التهريب

والبلاد زراعية يصدر منها القمح والشعير والارز والاثمار المختلفة والعقاقير الطبية والصوف والقطن والحرير والجلد والافيون

وصدر منها سنة ١٩٠٤ من الحرير والمنسوجات الحريرية ما ثمنهُ مليون و٢٢٧ الف جنيه ومن الافيون ما ثمنهُ ٣٠٠ الف جنيه ومن صمغ الكثيراء ما ثمنهُ ١٢٠ الف جنيه ومن القنبالك ما ثمنهُ ٢٤ الف جنيه ومن القطن والمنسوجات القطنية ما ثمنهُ ٤٤٢ الف جنيه ومن الصوف ما ثمنهُ ١٧٣ الف جنيه ومن البسط ما ثمنهُ ٤٠٧ آلاف جنيه ومن اللؤلؤ والحجارة الكريمة ما ثمنهُ ٦١ الف جنيه

وفي البلاد كثير من منابع الرصاص والنحاس والقصدير والانتيمون والنكل والكوبالت والمغنيس والبورق . والحديد كثير جداً فيها ومعادنهُ غنيَّة وفيها فحم حجري جيد قرب طهران وفيها النفط وزيت البترول ويكثر فيها الفيروز

ومراكز تجارتها في تبريز وطهران واصفهان ولها تجارة واسعة مع اوربا . وقد بلغت قيمة صادراتها ووارداتها سنة ١٩٠٤ نحو ١٢ مليوناً من الجنيهات واكثر تجارتها مع روسيا وانكلترا

وفيها سكة حديدية طولها ستة اميال من طهران الى شاه عبد العظيم فتحت سنة ١٨٨٨ وهي لشركة بلجيكية وسكة للمركبات بين طهران وكوم وطولها ٩١ ميلاً وبين طهران ورشت طولها ٢٢٠ ميلاً . وسكة للقوافل بين الاهواز واصفهان وسكك اخرى يسهل السير فيها ولكنها لا تقوم مقام السكك الحديدية في تسهيل التجارة واستثمار خيرات البلاد

ونظام التلغراف فيها حسن فان فيها نحو عشرة آلاف ميل من اسلاك و١٣٠ مكتباً لهُ

وادخل نظام البوسطة اليها سنة ١٨٧٧ ادخلهُ رجل نمسوي في خدمة حكومة ايران وكان دخلها يتضمن ضماناً فأبطل ذلك سنة ١٩٠٢ واضيفت ادارة البوسطة الى ادارة الجارك . ويظهر لنا من انتظام وصول جرائدنا وكتبنا اليها ان نظام البوسطة على ما يرام

والبلاد كثيرة الخيرات واهلها على غاية الذكاء والنشاط وكان لاسلافهم شأن عظيم وقد زالَ الاستبداد الذي اخفى عليهم واضعفهم فيرجى ان يعودوا الى سابق مجدهم ويصيروا بلادهم من اغنى بلدان المشرق واوسعها عمراناً

ولا تذكر بلاد ايران ومدينة طهران الاَّ ويخطر على البال غنى ملوكها وما في قصورهم من

التحف والحجارة الكريمة . اما الغنى فلم يعد احد يصدق به ولا من الايرانيين انفسهم عن ما سمعناهُ من الدين ذكرناهم في هذا الموضوع من وجه الايرانيين

واما التحف والجواهر فكثيرة عندهم قالت مسز بشوب في رحلتها في ايران وكردستان (على ما في كتاب ملوك الناس) انها دخلت دار الكنوز في قصر طهران فرأتها غرفة فسيحة كثيرة النقش فيها مائدة مغطاة بالذهب حولها صناديق من الزجاج على موائد من المرمر . وفي هذه الصناديق جواهر الشاه وكنوز المملكة من اللؤلؤ والماس والياقوت والزمرد والصفير والاسخة القديمة المرصعة بالجواهر الكريمة من التروس والسيوف والخوذ والدروع وفيها كلها من حجارة الماس والياقوت والزمرد واللؤلؤ ما يفوق الوصف حتى ان الناظر اليها يظن انهُ في حلم لا في يقظة

وهناك صندوق في كل ياشين الشاه مرصعة بالحجارة الكريمة وصناديق كثيرة غير الصندوق منها قدمان او ثلاث وعرضهُ قدم او اكثر وهي مملوءة باللآلىء وحجارة الياقوت والماس والصفير والزمرد لتأنق بالوان شتى . والجواهر مكومة كوماً كأنها عرم الشاي او الارز . وهناك كرة من الذهب قطرها عشرون عقدةً تدور في منطقة من الذهب ومنطقة خط الاستواء ومنطقة البروج مرصعتان بحجارة الماس الكبيرة والبلدان محدودة على الكرة بحجارة الياقوت واما بلاد ايران فحدودها من الماس والاوقيانوس مرصع بالزمرد . وكأنَّ هذا لا يكفي لاظهار الابهة والمجد فترى حولها كوماً من النقود الذهبية كل قطعة منها تساوي ثلاثة وثلاثين جنيهاً

ولا مشاحة في صدق هذه الصيدة وفي ان قصور ايران من اغنى قصور الملوك وفيها من الجواهر والتحف ما يعز وجود نظيرهِ ولكن ما في هذه الجواهر وهذه التحف بالنسبة الى غنى الممالك وما قيمة النقود الذهبية ولو كوّمت كوماً بالنسبة الى غنى الاغنياء من الاوربيين والاميركيين فان غنياً واحداً من اغنياء اميركا يستطيع ان يشتري كل تحف شاه ايران بدخل سنة واحدة من اموالهِ . والغنى الحقيقي هو غنى البلاد والثروة الحقيقية في ثروة الامة . بلاد مثل ايران لا يبلغ دخل حكومتها السنوي مليوناً ونصف مليون من الجنيهات لا يحق لها ان تعدَّ بين الممالك الكبيرة ولا بين الممالك الغنية فان مصر على صغرها يبلغ دخل حكومتها السنوي عشرة اضعاف ذلك . ومن الاغنياء من دخلهُ السنوي ضعفا ذلك او ثلاثة اضعافهِ ولكن اذا صلحت احوال البلاد واستثمرت موارد ثروتها حتى صار دخل حكومتها السنوي عشرة ملايين من الجنيهات او اكثر وصارت قيمة صادراتها وواردتها عشرين او ثلاثين مليوناً فحينئذٍ يقال انها دخلت في مصاف البلدان الغنية